تجليات الفكر الإصلاحي في الشعر الجزائري الحديث

د . ملفوف صالح الدين
جامعة خميس مليانة (الجزائر)

الملخص

يهدف هذا البحث الذي يحمل عنوان: تجليات الفكر الإصلاحي في الشعر الجزائري الحديث إلى تسليط الضوء على اتجاه الشعر الجزائري التقليدي المحافظ، الذي تجشم ورواده عناء حمل أعباء الإصلاح والتوعية والتوجيه على عاتقه في وقت كانت الجزائر فيه ترزح تحت وطأة الاحتلال الفرنسي الغاشم، ففي مطلع العشرينات شرعت جذوة الحس الإصلاحي تتقد أكثر من ذي قبل، مما أشعل فتيل صراع فكري بين الفكر الوطني الإصلاحي القائم على العربية والإسلام والجزائر من جهة، وبين سياسة الاستعمار والفكر الموالي له من جهة أخرى.

Le résumé :

L'objectif de la présente recherche intitulée **« *les manifestations de La pensée réformiste dans la poésie algérienne contemporaine*»** est de mettre en évidence le rôle et l'évolution de la poésie traditionnelle conservatrice algérienne. Cette dernière a été pionnière en matière de réforme car elle a pris en charge la sensibilisation et l'éducation du peuple algérien à une époque où le pays souffrait des affres de la colonisation française.

Ainsi, à l'aube du 20ème siècle, un véritable air de renouveau commence à souffler pour laisser exprimer plus que jamais l'esprit et la fibre réformiste. Ce qui a engendré un conflit idéologique entre la pensée réformiste nationaliste basée sur l'Arabe, l'Islam et la nation d'une part, la politique coloniale et ses idéologies de l'autre.

ABSTRACT:

The aim of this paper entitled : Reflections of Reform in Modern Algerian Poetry is to shed light on the Algerian conservative, conventional (traditional) poetry whose pioneers suffered agonies to carry the burden of reform, enlightenment and guidance at a time of horrid Frensh subjugation, i.e the early twenties when reformist attitudes and tendencies started to gain foothold and obtain more verve than before. Thus, the intellectual conflict between a nationalistic reformist ideology based on Arabisation, and Islam on the one hand and colonialism and the ideologies advocating it on the other, was well underway.

تزامنت حركة الانتعاش الفكري والأدبي في الجزائر أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين مع مناخ سياسي فكري جديد خصوصا بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، حين مضت الجزائر تزداد انفتاحا على العالم الخارجي -عربيا و إسلاميا وأوربيا- فأسهمت في ذلك عوامل مختلفة، داخليا وخارجيا، فقد مضى الحس الوطني يتنامى بين الجزائريين، كما اتسعت الصلة بين الشرق والغرب عبر روافد مختلفة، وقنوات عديدة مثل: الصحافة، والحجاج، والجنود، والمهاجرين إلى فرنسا بالخصوص، كما غذت هذا الحس الوطني ببعده القومي الواضح سياسة الغرب في الهيمنة على العالم الإسلامي ومنه الوطن العربي.

إن الحركة الأدبية ذات صلة وثيقة بالوضع الوطني والاجتماعي، فقد كان الأديب دائما ضمير الأمة، وصدى همومها وآلامها وآمالها، ولسانها المعبر عن معاناتها وطموحها، يرصد جوانب الخير والشر فيها، فيبارك تلك عموما، ويعرض عن هذه ويدينها غالبا، مبشرا بمثل العمل والمحبة والوفاء، داعيا إلى سعادة الإنسان وصون كرامته، وكرامة وطنه، معلنا عداءه لكل أشكال الظلم والقهر وكل أساليب المصادرة التي تتعرض لها حريته وحرية أبناء وطنه.

يسعى هذا البحث الموسوم بـ: تجليات الفكر الإصلاحي في الشعر الجزائري الحديث إلى إماطة اللثام عن اتجاه الشعر الجزائري التقليدي المحافظ، الذي تجشم ورواده عناء حمل أعباء الإصلاح والتوعية والتوجيه على عاتقه في وقت كانت الجزائر فيه ترزح تحت وطأة الاحتلال الفرنسي الغاشم، ففي مطلع العشرينات شرعت جذوة الحس الإصلاحي تتقد أكثر من ذي قبل، مما أشعل فتيل صراع فكري بين الفكر الوطني الإصلاحي القائم على العربية والإسلام والجزائر من جهة، وبين سياسة الاستعمار والفكر الموالي له من جهة أخرى.

في هذا الظرف بالذات كان لمثل " نادي الترقي " الذي تأسس بالعاصمة الجزائرية سنة 1927 م بفكرة من **أحمد توفيق المدني** دور بارز في الحركة الثقافية عموما، والحركة الإصلاحية خصوصا، وقد قام هذا النادي بمهمة جليلة في إشاعة الحرف العربي: دروسا ووعظا وخطابة من أجل التمكين للحس الوطني، وقد وفق هذا الصرح في مهمته أيما توفيق بشهادة المفكر **مالك بن نبي** بمجرد نزوله بميناء مدينة الجزائر عائدا من باريس سنة 1932 م إذ قال: « ولم تكن ظاهرة التغير التي أشاهدها على وجه رجل الشارع، وفي هيأته وكلامه، وفي هذه اللافتة المكتوبة بالخط العريض [لافتة مقر النادي مكتوبة باللغة العربية] تعني إلا شيئا واحدا هو أن موجة الإصلاح قد وصلت إلى هنا ... »[1] هذا المحيط الجديد غذته جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بفكرها الإصلاحي بعد تأسيسها، بقيادة أقطاب فكر وإصلاح من قبيل : **عبد الحميد بن باديس**، و**محمد البشير الإبراهيمي**، و**العربي التبسي**، و**الطيب العقبي** ... وغيرهم، حيث انطلقت عاصفة الإصلاح من قسنطينة وبدأت في المنطقة بعض الأسر المسلمة تفكر في رد اعتبارها على أساس الوطنية و الدين.

لقد شهد الأدب الجزائري في هذه الفترة قفزة نوعية وكمية تطورت فيها أشكال قديمة، فعرف الفخر في الشعر منحى وطنيا متطورا ناضجا حارا، حين شاع الشعر السياسي القومي، والرمزي، ... وغير ذلك، كما برزت أشكال جديدة مثل: القصة، والخاطرة، والمسرحية بنوعيها : النثرية والشعرية، وتألقت في ذلك شخصيات أدبية كثيرة بدأت منذ العشرينات تعكس ملامح أدب جزائري نضالي وإصلاحي، تبعا لواقع الحياة السياسية والاجتماعية آنذاك.

إن الباحث في الشعر الجزائري الحديث يلحظ فيه نزعتين: نزعة المحافظة والتقليد وكان لها أنصارها والمتحمسون لها، ونزعة التطوير والتجديد وكان لها روادها والداعون إليها. غير أن النزعة الأولى كان لها في الأوساط الأدبية الجزائرية معتنقون أكثر، ووجدت من الشعراء والنقاد استجابة تلقائية أكبر، بفعل الظروف والمؤثرات السياسية، والثقافية، والاجتماعية، التي أحاطت بالشاعر الجزائري، هذه الأخيرة التي تضافرت كلها على توجيه الحركة الشعرية إلى أن تتغلب عليها نزعة المحافظة والتقليد. ومن هنا يكون تسليط الضوء على هذه المؤثرات الأساسية التي

ساعدت على انتشار هذا الاتجاه واستمراره أمرا ضروريا، قبل التعريج على نماذج هذا التيار الشعرية ذات التوجه الإصلاحي وتقييمها.

تأتي " الثقافة السلفية " في طليعة المؤثرات على الشعر الجزائري التقليدي المحافظ، فقد ظلت الثقافة العربية في الجزائر طوال عهد الإصلاح، ثقافة سلفية محافظة توجهها وترعاها حركة إصلاحية اتخذت من القول التالي: « لا يصلح آخر هذه الدنيا إلا بما صلح به أولها » 2 شعارا لها، وكانت مراكز التعليم مرتبطة بالوسط الديني ارتباطا قويا كالزوايا والمساجد والكتاتيب القرآنية وحتى المدارس على قلتها، أما المواد التي تدرس فيها فكانت تعتمد أساسا على حفظ القرآن الكريم دون الفهم والتفقه فيه ، وهذا ما أشار إليه الشاعر **الجنيد أحمد المكي** حين قال: « ... فالولد يقضي جل حياته إن لم أقل العمر كله في الدروس القرآنية منكبا على لوحة مملوءة حروفا سوداء، يكررها صباح مساء، كالفونوغراف *، دون فهم يغذي العقل، ولا نبرح الدروس إلا وقد اعوج مستقيم عودنا ... » 3 .

من ثم فقد جاءت دعوة الأدباء الإصلاحيين إلى العناية بالقرآن الكريم – وهو يعد الرافد القوي، والمنبع الثري للثقافة العربية، والاهتمام به حفظا وتذوقا، ودراسة وتفسيرا – استجابة طبيعية لهذه الرسالة التي يحملها رجال الإصلاح، وهم يقاومون تيار الثقافات الأجنبية الدخيلة، يقول الشاعر **إبراهيم أبو اليقظان:**

رحلنا رحلة ألقت علينا دروسا في دروس في دروس
رأينا الناس أشكالا فمنهم ثعالب بل ذئاب في لبوس
و منهم بائعو الدين الشريف مع الأوطان بالثمن البخيس
و لكن بين هؤلاء قوم كرام مصلحون ذوو نفوس 4

يعد الأدب العربي القديم من أغزر الروافد التي صبت في الشعر الجزائري الحديث، فساعدته على الثراء والنمو، وطبعته بالقوة والجزالة، وأشاعت فيه التعابير المستمدة من الأدب القديم، ونحسب أن الذي دفع الشعراء الإصلاحيين إلى تشرب الأدب القديم والعناية به حفظا وتذوقا وتقليدا سببان أساسيان، أولهما: عناية الحركة الإصلاحية بالتراث العربي القديم، بوصفه الرافد القوي الذي يرفع اللغة العربية المضطهدة في الجزائر.

إن الحماسة للشعر العربي القديم وإحلاله من النهضة الأدبية مكانة مرموقة، جعلت رائد الحركة الإصلاحية في الجزائر يهاجم ما جاء في كتاب (الخيال الشعري عند العرب) لأبي القاسم الشابي، مما رآه ابن باديس استنقاصا من حق هذا الأدب، يقول في هذا الشأن : « الشعر العربي هو أصل ثروتنا الأدبية، وأصل بلاغتنا، ومرجع شعرائنا في اللغة والبلاغة، والأساليب العربية، فدرسه والاستفادة منه، أمر ضروري لحفظ هذا اللسان المبين، فكيف نبني دعوتنا إلى توسيع الشعر العربي بالتزهيد فيه ؟ ! ... » 5 .

ولم يقتصر هذا الدفاع والتوجيه على شيوخ الحركة الإصلاحية وحدهم، بل إننا نجد من بين شعرائها أيضا من كان يوجه الأدباء الناشئين إلى الأدب القديم، مفضلا إياه على الأدب الجديد، فهذا الشاعر **محمد العيد آل خليفة** يوجه من الشعراء المبتدئين كلا من: "عثمان بلحاج" و "محمد الأخضر السائحي" إلى ذلك حيث ينصحهما بقوله:

إني أرى الأدب الجديد كساكما حللا ترف بحسنها و برودا
فتعهدا الأدب القديم فإنه أحلى محاورة و أصلب عودا 6

وأما السبب الثاني الذي دفع الشعراء الإصلاحيين إلى تشرب الأدب العربي القديم دون سواه هو ابتعادهم عن الثقافات الأجنبية، فمن المعروف أن أغلب الشعراء في عهد الإصلاح كانوا قد تخرجوا في جامع الزيتونة، ولم يسعفهم الحظ في أن يضيفوا إلى ثقافتهم العربية ثقافة أجنبية أخرى، بل إن بعض الشعراء كان يرفض الاحتكاك بالثقافة الفرنسية، وهذا ما أشار إليه الدكتور **محمد مصايف** في كتابه (النقد الأدبي الحديث في المغرب العربي) حيث يقول : « لأن فرنسا في نظر نقاد المغرب العربي وأدبائه التقليديين دولة استعمارية، وهذا ما يفسر قيام بعض هؤلاء بردود فعل قوية ضد ما أسموه : احتكاك اللغة العربية باللغة الأجنبية . » 7 .

من المؤثرات الأساسية يلوح التأثر بمدرسة الإحياء العربية في الأفق، ومن العوامل الأساسية المساعدة على انتشار أدب مدرسة الإحياء في الجزائر، اتجاه الحركة الإصلاحية وموقفها السلفي الواضح من قضايا الفكر والثقافة، فما كان إعجاب الحركة الإصلاحية بأدباء النهضة العربية وشعرائها يتوقف عند حدود القراءة والمتابعة ولكنه تجاوزه إلى التشرب والتقليد، فكان المدرسون يحفظون قصائد "البارودي" و "أحمد شوقي" و "حافظ إبراهيم" و "معروف الرصافي" ويحفظونها بالتالي لتلامذتهم، ويعطونهم أبياتا منها يطلبون منهم تشطيرها أو معارضتها، ويعقدون لهذا منافسات يرصدون لها جوائز تشجيعية.

آخر المؤثرات هو مفهوم أصحاب هذا الاتجاه للشعر ، فقد ظلت نظرة الشعراء الإصلاحيين إلى الشعر وماهيته مرتبطة بالمفهوم التقليدي المعروف عند النقاد العرب القدامى له، فقد التزموا في الأغلب الأعم تلك الشروط والتحديدات التي وضعها أمثال " قدامة بن جعفر " في كتابه (نقد الشعر) و " ابن قتيبة " في (الشعر و الشعراء)، و "الآمدي" في (الموازنة) و "الجاحظ" في (البيان و التبيين) و "ابن رشيق" في (العمدة) 8 . فهاهو **إبراهيم أبو اليقظان** –مثلا– يقدم لنا في مقدمة ديوانه الصادر سنة 1931م، تصورا عاما لمفهوم الشعر، ووظيفته، ورسالة الشاعر في الحياة والمجتمع، وتصوره هذا لم يخرج عن التعريفات التي نجدها في كتاب (العمدة) **لابن رشيق**، لاسيما في حديثه عن القيمة الاجتماعية للشعر، كما تأثر **بابن طباطبا** في كتابه (عيار الشعر) وبخاصة حين تكلم عن وجوب اختيار البحر الملائم للغرض الذي يرغب الشاعر النظم فيه، وما تستوجبه صناعة الشعر من مراجعة وتنقيح.

غير أن اللافت للنظر هو أن الشعراء الجزائريين لم يقفوا وقفات طويلة في تحديد ماهية الشعر وتعريفه، وكأنهم اكتفوا في ذلك بمقولات النقاد القدماء، وسلموا بها دون محاولة الإضافة إليها، في حين نجدهم يولون أهمية كبيرة لوظيفة الشعر ودوره ومكانته في الحياة والمجتمع، ويناقشون مهمة الشاعر ورسالته في التوجيه والتوعية، وربط كل هذه الأمور بالواقع الجزائري والظروف السياسية والاجتماعية آنذاك، فالشعر وسيلة تعبيرية تهدف إلى نهضة الأمة ورقيها والترجمان الأمين لأفرادها . يقول **أبو اليقظان** في هذا الشأن : « اعلم أن آداب كل أمة مرآتها، ومرآة الأدب الشعر، فالشعر هو مظهر، تظهر فيه مشاعر الأمة، وتتجلى فيه أحوالها، وتتراءى للرائي نفسيتها، ويعرف به درجة مزاجها العقلي .... » 9 .

ويولي **أبو اليقظان** أهمية بالغة للغاية التعليمية للشعر، ويؤكد على ضرورته في بناء مجتمع متماسك ومتخلق، فهو يراه « فنا من الفنون الجميلة التي لا تكتمل حياة الأمة إلا بها ما دام القصد منه إيقاظ الإحساس، وتنبيه الشعور، وتنمية العاطفة، وتربية الوجدان، وتنوير العقل، وتهذيب النفس وكبح جماحها وحملها على أغراض شريفة بأخصر طريق وألطف إشارة ... » 10 .

أما **محمد الهادي السنوسي الزاهري** فيضع الشعر والشعراء في الطليعة المواجهة لتحمل أمانة الإصلاح، والتوجيه، ووحدة الصفوف، والوقوف أمام أطماع النفعيين والانتهازيين من المعمرين، ومن ثم فإنه لا غنى لأية أمة عن الشعر والشعراء 11 .

ما يلاحظ على هذه النصوص النقدية ربطها الواضح بين الشعر والأخلاق، فالشعراء والنقاد المحافظون يتصورون في تمسك شديد – وباتفاق يكاد يكون إجماعا – أن رسالة الشاعر إصلاحية، توجيهية، تعليمية، بل إن بعض النصوص تذهب إلى حد اعتبار الشاعر مُحَاسَبا على سلوكه الأخلاقي أكثر من غيره لأنه القدوة والمثال، ففي مقدمة كتاب (شعراء الجزائر في العصر الحاضر) يذهب **محمد الهادي السنوسي** إلى اعتبار الشعر العربي أداة كفاح في سبيل تأصيل قيم الشعب الجزائري، ووسيلة من وسائل الرقي والنهوض، وهو من أجل ذلك يعد الشاعر في المجتمع رسولا ذا رسالة سامية « إنه ذلك الفذ القادر الذي أوقف نفسه على بني جلدته، أو بني الإنسان جميعا، يجاهد بفكره في سبيلهم ليهدي الضال، ويعلم الجاهل، ويضرب لأبناء البشر المثل العالية في السعادة، وكمال الإنسان ... » 12 .

وهكذا كان أغلب الشعراء في هذه الفترة يُصدرون في مفهومهم للشعر ، عن هذه النظرة التي تولي الجانب الأخلاقي أهمية في المجتمع، ولا تتصوره إلا في خدمة الوجدان الاجتماعي للأمة، ولعل هذا الاتجاه هو الذي يفسر دعوة بعض الشعراء إلى الانصراف عن بعض الأغراض الشعرية ذات الطابع الشخصي أو الاهتمامات الفردية، كالمدح إذ رأوه تملقا، والرثاء الذي اعتبروه تعدادا ونحيبا، والهجاء الذي عدوه بذاءة وانحطاطا، وازورارهم عن الغزل معتبرين إياه خروجا عن الآداب العامة، والوقار الإصلاحي 13 .

ويتجلى المفهوم السلفي لدور الشعر عند بعض الشعراء بصفة أكثر وضوحا، وأشد تركيزا عندما يتصورون الشاعر نفسه فردا مجندا في إطار الحركة الإصلاحية، يجب أن يقدم الدليل من نفسه في حسن السلوك والتحلي بالأخلاق الفاضلة ، **فالطرابلسي** لا يتصور الشعراء جديرين بهذه التسمية إلا إن اتصفوا « بعزة النفس، ذائدين عن حياض الدين، سالكين بأمتهم سبل النجاة، ناهجين منهج الأخوة، متحدين على إعلاء كلمة الله . » 14.

والواقع أننا نلمح في هذه النصوص النقدية إشارات خفية تدعو إلى توظيف الشعر أداة للكفاح السياسي الوطني إلى جانب استخدامه أداة للإصلاح الاجتماعي، ولكن هذه النصوص على قلتها لا تكاد تصرح بهذا الموقف نظرا للأوضاع الاستعمارية المعروفة، فهذا **محمد الهادي السنوسي** يؤكد على دور الشاعر الجزائري في بعث الإحساس الوطني في المجتمع، وما ينتظر منه في هذا المجال، ويضرب لذلك مثلا بشعراء الثورة الفرنسية بطريقة ذكية، ويبين للشعراء الجزائريين ما كان "لفيكتور هيجو" و "لامارتين" و "فولتير"، من دور فعال في إيقاظ الهمم الفاترة فثارت ضد الظلم والاستبداد.

ويعد الشاعر **محمود بن دويدة** الشعر – نظرا إليه من هذا الجانب – خير كفيل بالرقي إلى أفق الكمال، وصرح العز والرتب، لأن الشاعر يستطيع أن يثير الحماسة، ويبعث الشعور الحي في أفراد الشعب، بل إن باستطاعته أن يكون رائدا للشعب في مقاومة المستعمر، دافعا إياه إلى إثبات ذاته، واسترداد حقه، يقول في هذا الشأن:

فكم كهرب الشعر مغلوبا على وطن فجرد السيف يتلو آية الغلب 15

وقد يكون طبيعيا أن يرتبط الشعر عند هؤلاء بالأخلاق على النحو الذي رأيناه لأنهم ينتمون إلى حركة إصلاحية سلفية من أهم مبادئها الدعوة إلى الأخلاق الفاضلة، غير أن هذه النظرة تطرفت بعض الشيء حين قصرت نظرها على الجانب الاجتماعي والديني، دون العناية بالشاعر وأحاسيسه، ودون النظر إلى العمل الشعري من جانبه الجمالي، وهذه النظرة أثرت تأثيرا سلبيا على هذا الشعر وعطلت الجانب الفني فيه.

ليس غريبا إذا أن تكون نظرة الشعراء الجزائريين الإصلاحيين إلى الغزل مثلا استجابة للواقع الذي فرضه عليهم الشعب المتزمت كما يقول **محمد العيد آل خليفة:** « إن المجتمع في تلك الفترة فرض علينا أن نطرق مواضيع معينة ولذا جاءت أشعارنا توجيهية، تربوية، اجتماعية... على أن الواجب يقتضي من صاحب الموهبة أن يسخرها لفائدة شعبه، لا لفائدته الخاصة، فالغزل لا يخلو من روح أنانية .... » 16 .

لقد عبر أكثر من شاعر جزائري إصلاحي عن هذا الاتجاه بالقول المنظوم، فها هو **عبد الحميد بن باديس** يقول:

و دع غزلا للغانيات فطالما سلا عن وصـــال الغانيات نبيل
فديدني الآداب و العلم مقصدي و لازلت في نيل المعالي أجـــول

ويقول **اللقاني بن السائح** :

ألا فدع التغزل في غوان فتلـــك طبيعـــــة المستهتريـــنا
فمن صوت البلاد لنـــا نداء يكـــاد المرء أن يسمعـــه أنينـــا 17

ويقول **الطيب العقبي** :

دع ذكر سلمـــى و سعـــاد و انهض لإصـــلاح البـــلاد 18

وقد امتدت هذه النظرة فاعتنقها بعض الشعراء أيضا في الأربعينات، إبان النضال السياسي، فهذا **مفدي زكريـــا** يهاجم دون هوادة أولئك الذين يرتزقون بالشعر وينصرفون عن ميادين النضال إلى ميادين اللهو والغناء المائع لقاء مبلغ مالي، أو يخدمون به ركاب المستعمر بغية وظيف حكومي، يقول في هذا الشأن :

لهفي على الشعر أضحى عند بعضهم بضاعة ما لها عـــز و لا شـــان
هذا يـــــتـــاجـــر بـــالأشعار محترفا و ذاك غايته عز ونـــيـــشـــان
هذي الدعارة في الآداب رائجة بناتها الـــيوم أشـــعار و ألحان
فأصبح الشعر خنثى مثل قائله لا الشعر شعر و لا الفنان فنـــان
و كل شعب غدا بالشعر مرتزقا فحظه من حياة الـــــعز خسران 19

وفضل **أحمد سحنون** أداء رسالته الإصلاحية في شعر الوعظ والإرشاد وتوجيه الشباب الجديد، فكان يخاطـــب المعلم بهذه الأبيات الحية المتفائلة بمستقبل الوطن والأمة ، يقول في هذا الشأن :

هات من نشء الحمى خير عتاد و ادخرهم لغـــــد جند جهاد
هات نشئا صالحـــا يبني العلا و يفك الضاد من أسر الأعـــادي
هاته جـــندا قويـــــا باســـلا إن دجى خطب يكن أول فـــــاد
لا تضق ذرعا و لا تهلك أسى أمة الضاد ســـــتحظى بالمـــــراد 20

وباللهجة المتفائلة نفسها خاطب **أحمد سحنون** التلميذ الذي رمز به إلى الجيل الجديد الذي رفع راية الجهاد فـــي النهاية وقاد الثورة، فهو يخاطب التلميذ قائلا :

لك في كل حشـــا نـــبع وداد يا رجاء الضـــاد يا ذخر البلاد
شعبك الموثـــــــق لم يـــبق له من عتـــاد فلتكن خير عتـــاد
لج الاســـتعمار في طغيـــانـــه كل يوم منه ألـــوان و اضطهاد
دينك الإسلام في أوطـــــانـــه ناله المكروه من أيدي الأعادي
و ليكن حاديك تحرير الحمى إن تحرير الحمى للـــحر حاد 21

إن إنكار فن المديح، أو الرثاء، أو الهجاء، أو الغزل، كما بيناه على مدار الشواهد الشعرية السالفة الذكر لم يكن، حسبما يبدو، تحولا عن غرض شعري تقليدي لدافع فني، أو استجابة لرؤية جمالية، وإنما جاء استجابة لدافع موضوعي أملته الظروف الخارجية وفرضه الواقع الاجتماعي والسياسي، آية ذلك أن هؤلاء الشعراء أنفسهم حين انتقدوا هذه الأغراض لم ينصرفوا عنها، وإنما استخدموها فيما يحسبونه إصلاحا وطنيا، صنيع **محمد السعيد الزاهري** في مطلع قصيدته التي يقول فيها:

إذا كان عشق في المها و هيام فلي في بلادي دونهن غرام 22

والعجيب في الأمر أننا نجد هذه النظرة حتى عند أولئك الشعراء الذين أدركوا أن الشعر يجب أن يخضع للأحاسيس الداخلية للشاعر، فهم ما لبثوا أن وقعوا في تناقض غريب عندما حددوا مجال الشاعرية أمام الشاعر، ووضعوا له مناطق نفوذ يجب عليه ألا يتخطاها، فتتغلب هذه النظرة مثلا على شاعر معروف بنزعته التجديدية، واتجاهه الرومنسي، مثل **رمضان حمود** ويستجيب لدعوة الإصلاح ونظراته المتزمتة، قبل استجابته لدعوة التجديد ورؤيته المتفتحة، فينصح الشعراء قائلا: « و من يحب الغزل، فليتغزل في وطنه الجميل . » 23 .

إن انسياق الشعراء الجزائريين الإصلاحيين وراء هذه النظرة، قد يكون استجابة طبيعية لواقع اجتماعي وسياسي كانوا يعيشونه، فقد كانت تلك الظروف تتطلب منهم أن يسخر الشعر في سبيل النهوض بالبلاد، ويستخدم سلاحا بيد الشاعر إلى جانب سلاح الخطيب في المسجد، والمعلم في الكتاب، والصحفي في الجريدة، ولكن المبالغة في تحكم النظرة الأخلاقية في الفن جنت على الشعر الجزائري ولا سيما في عهد الإصلاح، فحرمته من إبداعات الشعر الذاتي العاطفي، وفي هذه النظرة تطرف واضح لأن « الناظر في النقد العربي القديم لا يجد فيه ما يشير إلى اعتناق النقاد لذلك المذهب التعليمي الذي يربط الشعر بغايات أخلاقية محددة ... » 24 .

وخلاصة القول، إن نظرة شعراء الإصلاح في الجزائر إلى الشعر وماهيته ظلت مرتبطة بالمفهوم التقليدي المعروف عند النقاد العرب القدماء. ولكن نظرتهم إلى وظيفة الشعر، ودور الشاعر في الحياة والمجتمع جاءت استجابة لواقع سياسي واجتماعي مفروض، مما جعلهم يُغَلِّبُونَ النظرة إلى المضمون على حساب الشكل، فهم في إلحاحهم على دور الشعر الإصلاحي والنضالي لم ينظروا إلى الشاعر على أنه إنسان مبدع له عواطفه الذاتية وإحساسه المرهف، وتلك نظرة كان لها أثرها الواضح في الإنتاج الشعري، إذ حدد من مجالاته، وأنقص من قيمته الفنية والجمالية .

الإحـــــــالات :

1- مالك بن نبي . مذكرات شاهد على القرن . دار الفكر . بيروت . 1970 م . ص 82 .

2- الكلمة منسوبة للإمام مالك بن أنس ، نجدها في آثار المصلحين الجزائريين الأوائل من أمثال : ابن بـــاديس ، و العقبـــي ، و التبسي ، و الإبراهيمي ، حتى إن هذا الأخير جعلها عنوانا لأحد مقالاته الإصلاحية .

* الفونوغراف : كلمة فرنسية معناها الحاكي .

3- محمد الهادي السنوسي الجزائري . شعراء الجزائر في العصر الحاضر . المطبعة التونسية . تونس . ج 1 . 1926 م . ص 69 .

4- إبراهيم أبو اليقظان . الديوان . المطبعة العربية . الجزائر . ج 2 . ص 12- 13 .

5- عبد الحميد بن باديس . مجلة الشهاب . ج 2 . م 6 . مارس 1930 م . ص 126 .

6- محمد العيد آل خليفة . مجلة : هنا الجزائر . ع 17 . أكتوبر 1953 م . ص 11 .

7- محمد مصايف . النقد الأدبي الحديث في المغرب العربي . الشركة الوطنية للنشر و التوزيع . الجزائر . 1979 م . ص 25 .

8- ينظر . محمد زغلول سلام . تاريخ النقد العربي إلى القرن الرابع الهجري . دار المعارف . مصر . 1964 م . مـــن ص 29 إلى ص 50 .

9- إبراهيم أبو اليقظان . الديوان .ج 1 . 1931 م . ص 04 .

10- المصدر السابق . ص 07 .

11- ينظر . محمد الهادي السنوسي الزاهري . شعراء الجزائر في العصر الحاضر . مطبعة النهضة . تونس . ج 2 . 1927 . ص 15 - 16 .

12- المصدر السابق . ص 10 .

13- ينظر . إبراهيم أبو اليقظان . الديوان . ص 11 .

14- الطرابلسي . الشعر و مكانته . وادي ميزاب . ع 22 . 04 مارس 1927 .

15- ينظر . محمد الهادي السنوسي . شعراء الجزائر في العصر الحاضر . ج 2 . ص 144 .

16- مقابلة مع الشيخ محمد العيد آل خليفة . جريدة الشعب الأسبوعي . 28 أكتوبر 1976 . ص 06 .

17- ينظر . محمد الهادي السنوسي الزاهري . شعراء الجزائر في العصر الحاضر . ج 1 . ص 39 .

18- الطيب العقبي . جريدة الإصلاح . ع 3 . 19 سبتمبر 1929 م .

19- تليت القصيدة في ذكرى الشابي . ينظر . ديوان : تحت ظلال الزيتون . دار النشر . تونس . 1965 م . ص 20 .

20 ، 21- من لوحة خطية عنوانها : هدية البصائر للمدارس العربية .

22- محمد السعيد الزاهري . مجلة البرق . ع 18 . 11 جويلية 1927 م .

23- رمضان حمود . بذور الحياة . ص 107 .

24- محمود الربيعي . نقد الشعر . دار المعارف . مصر . 1968 . ص 65 .